

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة التابعين - الدرس ١٦ : عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس^١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٠-١٢-٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تابعينا الكرام السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، أهلاً بكم و مرحباً ندعوكم لمتابعة هذه الحلقة الجديدة من صور من حياة التابعين و حلقة اليوم عن شخصية فذة اسمها عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس، قال عنه المؤرخون: الغافقي صورة صادقة لموسى بن نصير و طارق بن زياد في علو الهمة و سمو المقصود، طبعاً سنتابع الحديث عن عبد الرحمن الغافقي اليوم و سنكمله غداً لما فيه من سجايا سمححة و تاريخ حافل بالأمجاد، يسعدنا أيها الأعزاء أن نستضيف سماحة الشيخ الدكتور محمد راتب النابلسي الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق، و خطيب جامع النابلسي في دمشق، و أيضاً نقول أهلاً بالمدرس في مساجد دمشق السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته أستاذ جمال.

كيف نبدأ فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي بالحديث عن عبد الرحمن الغافقي ؟

الحقيقة ما كاد أمير المؤمنين و خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ينفيه من تراب سلفه سليمان بن عبد الملك حتى بادر يعيد النظر في أمراء الأمصار – الأقاليم – و يعزل و يولي، و كان في طليعة من استعمله السمح بن مالك الخولاني، فلقد أسنده إليه ولاية الأندلس و ما جاورها من المدن المفتوحة في بلاد فرنسا، ألقى الأمير الجديد رحاله في بلاد الأندلس و انطلق يفتتح عن أوuan الصدق و الخير، فقال لمن حوله: أبقي في هذه الديار أحد من التابعين ؟ فقالوا: نعم أيها الأمير إنه ما يزال فيينا التابعي الجليل عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ثم ذكروا له من علمه بكتاب الله و فهمه لحديث رسول الله و بلائه في ميادين الجهاد و تشوقه إلى الاستشهاد، و زهده بعرض الدنيا الشيء الكثير، ثم قالوا له: إنه لقي الصحابي الجليل عبد الله ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه و عن أبيه و أنه أخذ عنه ما شاء الله أن يأخذ، و تأسى به أعظم التأسي، دعا السمح بن مالك الخولاني عبد الرحمن الغافقي إلى لقاءه، فلما جاءه رحب به أكرم الترحيب، و أدنى مجلسه منه، ثم قعد معه ساعة من نهار يسأله عن كل عمله، و يستشيره في كثير مما أشكل عليه، و يروجه ليقف على طاقته، فإذا هو فوق ما أُخبر عنه، و أعظم مما ذكر له، فعرض عليه أن يوليه عملاً من كبير أعمال الأندلس، فقال له: أيها الأمير إنما أنا رجل من عامة الناس – هذا من تواضعه – و لقد وفدت إلى هذه الديار لأقف على ثغر من ثغور المسلمين و نذرت نفسي لمرضاة الله عز وجل، و حملت سيفي إعلاء لكلمة في الأرض و ستجدني إن شاء الله تعالى ألزم لك من ظلك ما لزمت الحق، دفق في هذا الوعي سيدنا الصديق قال: أطيعوني

ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، قال له: و ستجدني إن شاء الله تعالى أُلزِمَ لك من ظلك ما لزِمتَ الحق، وأطْوَعُ لكَ مَا بَنَاكَ مَا أطْعَتَ اللهُ وَ رَسُولَهُ مِنْ غَيْرِ وِلَايَةٍ وَ لَا إِمَارَةٍ، لم يمضَ غَيْرَ قَلِيلٍ حَتَّى عَزَمَ السَّمْحُ بْنُ مَالِكَ الْخُولَانِيَّ عَلَى غَزْوَ فَرْنَسَا كُلَّهَا، وَ ضَمَّهَا إِلَى عَدَدِ دُولَةِ الإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَ أَنْ يَتَخَذَ مِنْ دِيَارِهَا الرَّحْبَةَ طَرِيقًا إِلَى دُولَ الْبَلْقَانِ، وَ أَنْ يَفْضُّي مِنْ دُولَ الْبَلْقَانِ إِلَى الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ تَحْقِيقًا لِبِشَارَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ كَانَتِ الْخَطْوَةُ الْأُولَى لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدْفُ الْكَبِيرِ إِنَّمَا تَنْتَوِقُ عَلَى احْتِلَالِ مَدِينَةِ أَرْبُونَةِ ذَلِكَ أَنْ أَرْبُونَةَ كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْمَدَنِ الْفَرْنَسِيَّةِ الَّتِي تَجَاوِرُ بَلَادَ الْأَنْدَلُسِ، وَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا انْدَرُوا مِنْ جَبَالِ الْبِيرَنِيَّةِ وَ جَدُوْهَا تَنْتَصِبُ أَمَمُهُمْ كَمَا يَنْتَصِبُ الْمَارِدُ الْجَبَارُ، وَ هِيَ فَوْقَ ذَلِكَ مَفْتَاحُ فَرْنَسَا الْكَبِيرِ، وَ مَطْمَحُ الْطَّامِحِينَ إِلَيْهَا، حَاصِرُ السَّمْحَ بْنَ مَالِكَ الْخُولَانِيَّ مَدِينَةَ أَرْبُونَةَ ثُمَّ عَرَضَ عَلَى أَهْلِهَا إِلِّيْلَةَ أَوْ الْجَزِيَّةَ فَعَزَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَ أَبُوهُهُ، فَهَبَ يَهَا جَمِيعُهُمُ الْهَجْمَةَ تَلَوَّ الْأُخْرَى وَ يَقْذِفُهُمْ بِالْمَنْجِنِيَّاتِ حَتَّى سَقَطَتِ الْمَدِينَةُ الْعَرِيقَةُ الْحَصِينَةُ فِي أَيْدِيِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَسَابِيعٍ مِنَ الْجَهَادِ الْبَطْوَلِيِّ الَّذِي لَمْ تَشْهُدْ أُورْبَا نَظِيرًا لَهُ مِنْ قَبْلِهِ، ثُمَّ بَادَرَ الْقَائِدُ الْمُظْفَرُ الْمُنْتَصِرُ فَتَوَجَّهَ بِجَيْشِهِ الْجَرَارِ إِلَى مَدِينَةِ تُولُوزَ عَاصِمَةِ مَقَاطِعَةِ أُوكْتَانِيَا، فَنَصَبَ حَوْلَهَا الْمَنْجِنِيَّاتِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَ قَدَفَهَا بِالْأَلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ فِي أُورْبَا حَتَّى أَوْشَكَتِ الْمَدِينَةُ الْمُنْيَةُ الْحَصِينَةُ أَنْ تَخْرُجَ بَيْنَ يَدِيهِ، عَنْ ذَلِكَ وَقَعَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حَسْبَانِ أَحَدٍ، فَلَنْتَرَكَ الْحَدِيثُ لِلْمُسْتَشْرِقِ الْفَرْنَسِيِّ رِينُو لِيُسُوقَ لَنَا خَبْرَ هَذِهِ الْمَعرِكَةِ، قَالَ رِينُو: لَمْ أَصْبَحِ النَّصْرُ قَابُ قَوْسَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَدْنَى هَبْ دُوقْ أُوكْتَانِيَا يَسْتَفِرُ لِحَرْبِهِمُ الْبَلَادُ وَ الْعِبَادُ، أَرْسَلَ رَسْلَهُ فَطَافُوا أُورْبَا مِنْ أَفْصَاهَا إِلَى أَفْصَاهَا وَ انْدَرُوا مَلُوكَهَا وَ أَمْرَاءَهَا بِالْحَتَّالِ دِيَارِهِمْ، وَ سَبَّيْ نَسَائِهِمْ وَ لَدَانِهِمْ، فَلَمْ يَقِنْ شَعْبُ فِي أُورْبَا إِلَّا أَسْهَمَ مَعَهُ بِأَشَدِ مَقَانِيلِهِ بَاسًا وَ أَكْثَرُهُمْ عَدًّا وَ قَدْ بَلَغَ مِنْ نَصْرَةِ الْجَيْشِ وَ عَنْفِ حَرْكَتِهِ وَ تَقْلِيْدِ وَ طَائِهِ مَا لَمْ تَعْرِفْ لَهُ الدُّنْيَا نَظِيرًا مِنْ قَبْلِهِ حَتَّى إِنَّ الْغَبَارَ الْمُتَطَابِرَ تَحْتَ أَقْدَامِهِ قَدْ حَجَبَ عَنْ مَنْطَقَتِهِ عَيْنَ الشَّمْسِ وَ لَمَ تَدَانِ الْجَمْعَانُ خَيْلُ الْنَّاسِ أَنَّ الْجَبَالَ تَلَاقَى الْجَبَالَ ثُمَّ دَارَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ رَحْيَ مَعرِكَةِ ضَرُوسَ لَمْ يَعْرِفْ التَّارِيخُ لَهَا مِثِيلًا مِنْ قَبْلِهِ وَ كَانَ السَّمْحُ يَظْهُرُ أَمَامَ جَنُودِنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَ يَتَوَاثِبُ أَمَامَ عَسْكَرِهِ فِي كُلِّ اِتِّجَاهٍ وَ فِيمَا هُوَ كَذَلِكَ أَصَابَتْهُ رَمِيَّةٌ مِنْ سَهْمٍ فَخَرَّ صَرِيعًا عَنْ جَوَادِهِ، فَلَمَّا رَأَهُ الْمُسْلِمُونَ مُنْجَدِلًا فَوْقَ الثَّرَى فَتَوَقَّعُوا عَنْهُمْ فِي عَضْدِهِمْ وَ بَدَأُوا صَفَوفَهُمْ تَنْتَدَاعِي وَ أَصْبَحَ فِي وَسْعِ جَيْشِنَا الْجَرَارِ أَنْ يَبْيَهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، لَوْلَا أَنْ تَدَارِكُتْهُمُ الْعَنَايَا الْرَّبَانِيَّةُ لِقَائِدِ عَبْرَيِّ عَرْفَتْهُ أُورْبَا فِيمَا بَعْدَ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ، هُنَا دَخَلْنَا فِي الْمَوْضِعَ فَتَوَلَّى أَمْرُ اسْحَابِهِمْ بِأَقْلَى قَدْرِهِ مِنَ الْخَسَائِرِ وَ عَادَ بَهِمْ إِلَى إِسْبَانِيَّةِ وَ لَكِنَّهُ عَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يَعِيدَ الْكَرَةَ عَلَيْنَا مِنْ جَدِيدِ هَذَا كَلَامِ الْمُؤْرِخِ الْإِفْرَنِسِيِّ.

وبعد: هل رأيت الغيوم كيف تتقدّم عن البدر في الليلة الظلماء فيستضيء بنوره التائرون وبهتدى بثناء الحيارى، كيف انقضت معركة تولوز عن بطل الإسلام الفذ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي هل أبصرت العطاشى الموفين على الهلاك في جوف الصحراء كيف يلوح لهم الماء، كان كلام

في الصحراء، فيمدون أيديهم إليه ليغترفوا غرفة ماء ترد إليهم الحياة، هكذا مد جند المسلمين أيديهم إلى القائد العظيم ينشدون عنده النجاة و بياياعونه على السمع و الطاعة.

و لا غرو فقد كانت معركة تلوز أول جرح غائر أصيب به المسلمون منذ وطئت أقدامهم أوروبا، و كان عبد الرحمن الغافقي بلسم هذا الجرح، و اليد الحامية التي أحاطته بالعناية و الرعاية، و القلب الكبير الذي أصاب عليه الحنان، أرمضت أنباء النكسة الكبرى التي مني بها المسلمين في فرنسا فؤاد الخلافة في دمشق، و أوجح مصرع البطل الكمي السمح بن مالك الخولاني في صدرها نار الحمية للأخذ بالثأر، فأصدرت أوامرها لإقرار الجندي على مبايعتهم لعبد الرحمن الغافقي، و عهدت إليه بإمارة الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، و ضمت إليه ماجاورها من الأراضي الإفرنجية المفتوحة، و أطلقت يده في العمل كيف يشاء، و لا غرو فقد كان الغافقي حازماً صارماً تقىأ نقياً حكيناً مقداماً.

بادر عبد الرحمن الغافقي منذ أنتسب إليه إمارة الأندلس يعمل على استعادة ثقة الجندي بأنفسهم، و استرداد شعورهم بالعزّة و القوّة و الغلبة و تحقيق الهدف الكبير الذي طمح إليه قادة المسلمين في الأندلس، ابتداءً من موسى بن نصیر و انتهاءً بالسمح بن مالك الخولاني، فلقد انعقدت همّ هؤلاء الأبطال على الانطلاق من فرنسا إلى إيطاليا و ألمانيا و الإفشاء منها إلى القسطنطينية، و جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية و تسميته ببحر الشام، مكان بحر الروم، لكن عبد الرحمن الغافقي كان يؤمن بأن الإعداد للمعارك الكبرى إنما يبدأ بإصلاح النفوس و تزكيتها، هذه حقيقة خطيرة جداً، كانوا يعتقدوا أن الإعداد للمعارك الكبرى يبدأ بإصلاح النفوس و تزكيتها لأن الله عز وجل يقول:

﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾

[سورة الروم: الآية ٤٧]

و يعتقد أنه ما من أمة تستطيع أن تحقق غاياتها في النصر إذا كانت حصونها مصدعة مهداً من الداخل، لذلك هب يطوف بلاد الأندلس بلدًا إثر بلد و يأمر المنادين أن ينادوا في الناس: من كانت له مظلمة عند ولـ من الولـة، أو قاض من القضاة، أو أحد من الناس فليرفعها إلى الأمير، و أنه لا فرق في ذلك بين المسلمين و غيرهم من المعاهدين، العدل للجميع ثم طرق ينظر في المظالم مظلمة مظلمة فيقتصر للضعيف من القوي ويأخذ للمظلوم من الظالم، ثم جعل يتحقق في أمر الكنائس المغتصبة والمستحدثة فيرد ما قضت به العهود إلى أصحابها ويهدم ما بني منها بالرشوة ثم نظر في أمر عماله واحداً واحداً فعزل من ثبتت له خيانته وانحرافه وولي مكانه من استوثق من حكمته وحنكته وصلاحه، وقد قرن عبد الرحمن القول بالفعل ودعم الآمال بالأعمال فتفق من اللحظة الأولى لولايته يعد العتاد ويستكمـل السلاح ويرمم المعاقل ويبني الحصون. فضيلة الشيخ اليوم إذاً كلمات مضيئة حول سيدنا عبد الرحمن الغافقي التابعي الجليل جداً إن شاء

الله بمثل هذا الوقت حوالي الخامسة عشر دقيقة من الآن نلتقي مع حلقةٍ جديدةً ومتقدمةً ومتابعةً
لل الحديث حول سيدنا عبد الرحمن الغافقي.

فضيلةُ الشَّيخِ مُحَمَّد راتب النَّابُلْسِي لقائنا غداً والسلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبرَكَاتِهِ وَعَلَيْكُمُ السَّلامُ
وَرَحْمَةُ اللهِ وَبرَكَاتِهِ.

والحمد لله رب العالمين